فــن ارتيـاد المستقبـل

لا شك أن الارادة والعقل هما السلاح الذي يشق بهما الإنسان طريقه وسط غياهب المجهول، وبقيت رغبة الإنسان في سبر أغوار المستقبل واستقرائه على مر العصور حلما يراود الخيال، فتجسدت هذه الرغبة في المراحل المبكرة من تاريخ الإنسانية بالأحلام والسحر والتنجيم.

خالد المعيني

واتخذت في العالم القديم الكثير من القرارات في حالات الحرب والسلام بناء على هذه الطرق التي كانت سائدة على ضوء الفهم والتطور الإنساني ومنظومة القيم الطاغية وكيفية النظر إلى المستقبل، الأمر الذي يفسر كثرة وسرعة الانتقالات العاصفة في تاريخ الشعوب وانهيار الكثير من الأمم بلا رحمة، أما الأمم التي صمدت وطاولت فكانت هي الأمم القوية التي كانت أكثر استجابة للمتغيرات وحافظت بعقلانية وواقعية أكثر من غيرها على ديمومة عناصر قوتها.

كيف ننظر إلى المستقبل؟

وفي سياق التطور التاريخي وقفت عدة عوامل خلف بروز علم سالمستقبليات" كضرورة ملازمة للتطور الإنساني في مختلف الميادين وفي مقدمتها العمل السياسي، ولكي نفهم كيفية التأثير على المستقبل وآليات اختيار الاحتمالات الإيجابية واستبعاد السلبية، علينا ابتداء أن ننطلق من الفكرة التي تميز بين المستقبل كمستقبل والمستقبل عن كثب لأن بينهما فرقا كبيرا، ففي النظرة نحو المستقبل كمستقبل فإن ذلك يتضمن العواطف الإنسانية العادية، أما النظر إلى المستقبل عن كثب فإنه يعني الذهاب إلى هناك وفحص المستقبل المحتمل (الفرضيات) ثم إعداد أنفسنا طبقا لذلك.

إننا نتحدث هنا عن أساليب لدراسة المستقبل بغرض تنظيم الحاضر والابتعاد عن تركه للصدف والعمل بالطريقة التلقائية ورد الفعل، علما إن هذه الأساليب عاجزة عن توقع المستقبل بصورة كاملة ولكنها على الأقل قادرة على معرفة الأساليب التي نستطيع بها بناء المستقبل أو التأثير عليه إيجابيا من خلال دفع عناصر الاضطراب والاحتمالات السيئة باستبعاد مقدماتها بصورة مبكرة وتقليص هامش تأثيرها أو تحييدها على الأقل، بما يضمن تفادي انحرافات كبيرة عن خطة وبرنامج العمل.

لقد أصبح التنبؤ والتوقع والرؤية المستقبلية عنصرا ديناميكيا حاكما في التخطيط المعاصر، فلا يمكن لنا تصور إستراتيجية حديثة لانجاز مشروع في حقل ما ليس لها وحدات وأجهزة ومراكز دراسات قوية تستشعر عن بعد وتستشف الاحتمالات غير المتوقعة وتضع تصورات ورؤى واضحة بغرض تفادي أكبر كلفة من الخسائر.

استيلاد المستقبل والتحكم به

فهل نستطيع استيلاد المستقبل والتحكم به؟ هذا العلم كفيل بفهم أفضل لحركة التاريخ واكتساب قدرة أكبر لفن المناورة من أجل الإمساك بأعنة المستقبل أو على الأقل وضع مقتربات صحيحة، فمثل هذه المقدمات قد تؤدي إلى النجاح ولكن المقدمات الخاطئة تفضي حتما إلى الفشل، ولمجاراة التخطيط الإستراتيجي الذي يعني فن إنجاز الأهداف السياسية، فإن مفهوم المستقبل بقدر تعلق الأمر بهذه الدراسة يرتبط بمديات التخطيط المعروفة: (المدى القريب، والمدى المتوسط، والمدى البعيد).

يمكن بناء المستقبل في كل لحظة من خلال تتابع قرارات وخطوات مدروسة ومترابطة عقلانيا، فاللحظة الحاضرة هي ليست برهة بل هي نضح متراكم من الماضي (الماضي القريب + الماضي المتوسط + الماضي البعيد) تجمعت في ساحة الحاضر، ولا يمكن لأحد الادعاء أن الماضي يعيد نفسه بأحداث الحاضر ولكن بلا شك فإن جذور الماضي تمتد إلى الحاضر بشكل أو بآخر، فالمستقبل هو ما يتم الإعلان عنه في الحاضر.

وفي مجتمعات ذات وعي تاريخي متخلف وغير عقلانية فإن أكثر ما تخشاه هذه المجتمعات هو ثقافة المستقبل والنظر إليه بقوة، ولأنها تخشى المجهول فإنها كثيرا ما تحتمي وتتقوقع في الماضي، لذا نجدها تستهلك معظم جهدها وثقافتها وبنسبة 90٪ في اجترار الماضي والخلاف عليه، ولا تعير المستقبل وبرامجه إلا جهدا ووقتا نادرا، ولا شك أن انتشال هذه المجتمعات من هوة التخلف لا يكمن في العودة الموهومة وفق قوالب جامدة أكل الدهر عليها وشرب إلى (عصر ذهبي) أو عصر غيبي غير موجود، ربما تحقق بعضه في الماضي أو لم يتحقق أصلا، وإنما وجد طريقه إلى ذاكرة هذه الشعوب عبر تراكم أساطير وخرافات لمئات السنين تعزز وجودها وترسخ كوعي بفعل التخلف.

يبدأ الحل في بناء تدريجي للمستقبل عبر خطوات مدروسة وعصرية تعتمد على المنهج العلمي وليس الإفراط في الغيبية المطلقة والقدرية المطلقة، فلقد أصبح من المسلم به في عصرنا الحالي أن نسبة الانحراف عن جوهر فكرة الدين المحببة والتي ترتبط أساسا بالعلم والعقل قد بلغت درجة كبيرة من الانحراف إلى حد تكبيل العقول وتحويل الناس إلى عبيد للديماغوجية وقطعان مسلوبة الإرادة.

إن المجتمع المدني المنشود يجب ألا يعيش غربة عن ماضيه وإنما يتصالح معه ويعيد تعريفه من خلال تبني مواقف شجاعة متدرجة ومدروسة لتهديم صروح التخلف وأصنام العبودية الجديدة من خلال الارتكاز على القيم الايجابية في ذلك الماضي وإهمال وإلغاء بل ومحاربة كل ما هو سلبي ويعيق الحركة إلى الأمام ولا ينسجم مع جوهر الدين ولا يستجيب لمتطلبات العصر.

إن الدعوة إلى ارتياد المستقبل لا تتنافى في أي حال من الأحوال مع جوهر فكرة الدين السامية ولكنها تسعى إلى شيء واحد هو قلب معادلة التفكير في الانشداد إلى المستقبل بدل الاجترار والدوران كليا في خنادق الماضي.

ويمكن التعبير عن فن ارتياد المستقبل من خلال التعريف التالي: (إنه القدرة على تحريك واختيار احتمالات وخيارات مفيدة تمثل أحد أشكال المستقبل المرغوب فيه، ومحاولة استبعاد وتفادي أشكال المستقبل السلبية والمضرة، وذلك من خلال الإمساك بالحاضر والانطلاق منه بتدرج لبناء المستقبل).

التكنولوجيا كدالة للمستقبل

ما هي الوسائل التي يحتاجها مجتمع لينهي حقبة من تاريخ تحليقه نتيجة اليأس والإحباط من عالم الخيال والأحلام لينزل إلى أرض الواقع ويمسك بالمستقبل بقوة؟ ما هي الوسيلة المتاحة في عصرنا الحالي لردم هوة التخلف وتتيح له اللحاق بركب الحضارة الإنسانية المعاصرة وألا يكون حديقة خلفية للأمم القوية بل يكون في صدارتها؟

إن الشعوب التي ترغب في التطور عادة ما تحدث فيها الانتقالات النوعية الكبرى في تاريخها عبر أحد المولدات (Generator) الثلاثة التالية:

1 - الأحداث والحروب والكوارث.

2 - تضافر مجموعة مصادفات.

3 - الثورات والاكتشافات التكنولوجية.

وفي عصرنا الحالي لا يمكن الإمساك بالمستقبل وتعويض فجوة الزمن الضائع إلا عبر التكنولوجيا ليس بمعناها المادي (الميكانيكي) الذي اقترن طويلا بمفهوم التكنولوجيا وإنما عبر تبنيها كظاهرة وسلوك من خلال تعيين الأبعاد السياسية والفكرية لهذه الظاهرة والاقتراب من بعدها العقلاني×.

ففي سياق تطور ظاهرة التكنولوجيا عبر تاريخها الطويل يمكن حصر عدة نقاط أساسية فاصلة شكل كل منها في تاريخ المجتمعات البشرية (ثورة) غيرت جذريا من أسلوب وحياة هذه المجتمعات مع بيئتها المادية والاجتماعية والسياسية ونقلتها مراحل إلى مستقبل أكثر قوة.

لقد اثبت المتغير التكنولوجي من خلال الدور المتزايد الذي لعبه في شتى ميادين الحياة ومن خلال تفاعله مع جميع عناصر القوة الثابتة والمتحركة أنه دافع مؤثر وفعال في الإفصاح عن محتوى جديد للقوة وأنتج آليات وأنماطا خاصة بالتكنولوجيا فقد أزاحت وحيدت وضاعفت وأضعفت الكثير من عناصر ومرتكزات مفهوم القوة التقليدية.

× **العقلانيــــة** (rationalism): هي منهج فكري حديث يؤمن بالوسائل العلمية طريقا للتعامل مع الظواهر السياسية والاجتماعية وغيرها, وتعتمد في ذلك على الاكتشاف التدريجي تحت رقابة التجربة لذا يبتعد هذا المنهج كثيرا عن الأحكام المسبقة والمطلقة, ولم يكن للعلوم والتطورات التكنولوجية أن تتقدم لولا منهج العقلانية وبالتالي لا يمكن للعلم أن يزدهر ويتقدم في مجتمع يرفض العقلانية.

أمريكا وخطر النـزول عن القمة

ما إن بدت بوادر انهيار الاتحاد السوفييتي، حتى أخذ الكاتب والباحث الأمريكي فرنسيس فوكوياما في إطلاق قاعدته التاريخية بمنهج معاصر، معلناً نهاية التاريخ، ومجسّداً من خلالها انهزام جميع التيارات والأيديولوجيات، من قومية، واثنية، ودينية واشتراكية... وغيرها أمام الرأسمالية الأمريكية، معتبراً إياها الأنموذج الأوحد لقيادة العالم، لكن ألا يشكل هذا الأنموذج نقيضاً لنفسه، فيما يعتريه من تغيّرات اجتماعية اجتاحت المجتمع الأمريكي؟ خصوصاً بعد الاعتراف الصريح من فوكوياما مطلع الألفية الثالثة عن تراجع «نهاية التاريخ» أمام التعصب الأيديولوجي العالمي، والاستفحال «الميتافيزيقي» الذي أخذ يؤثر في الولايات المتحدة بعد ضربات 11 سبتمبر تحت ما يسمى بـ «الرابطة الدينية» في مواجهة الطرف الآخر.

مأمون شحادة *

فجوهر الصراع السوفيتي والأمريكي ارتكز على قانون وضعي بشري، أدخل المجتمع في دائرة رسمت معالم الصراع الأيديولوجي، كل يريد إقصاء الآخر، ليكون الأنموذج الذي يقتدى به، فوجه الشبه بين الاثنين تغييب لعنصر الدين من تلك الأيديولوجيات.

لكن الدائرة الايديولوجية اختلفت عما كانت عليه سابقاً، فعدوّ الأمس ليس كعدو اليوم، حيث ان تنظيم القاعدة يختلف ايديولوجيا عن العدو السابق (الاشتراكية)، ما يعني أن الشاذ يفند القاعدة، والفارق بين الطرفين هو الدين، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هو هل سيلجأ المجتمع الأمريكي إلى استعمال ايديولوجيا ميتافيزيقية لمواجهة الايديولوجيا الدينية لتنظيم القاعدة؟

على ما يبدو أن هذا ما سيحدث، وفقا لاختلاف الايديولوجيا، فقد أشار «هنتنغتون» محذّراً من تآكل الهوية الأمريكية وأساسها الأنغلو-بروتستانتي، وما يتهددها من انقسام لغوي وثقافي، يضع أميركا في مواجهة الإسلام، فقد استطاع بن لادن تحديد هوية أميركا بأنها مسيحية صليبية «وكسؤال» آخر، ما هي كيفيات وحيثيات وأينيات هذا التآكل؟ وما هو العنصر الذي لم يتطرق إليه هنتنغتون كإشارة الى هذا التآكل؟

إن المجتمع الأمريكي يحاول جاهداً استخدام مضادات ايديولوجية لمجابهة تلك الايديولوجيا الجديدة، ما يعني أن هذا المجتمع يسعى الى إيجاد آليات جديدة، في إشارة الى استخدام العامل الديني، فقد تبين هذا بعد ضربات 11 سبتمبر، إثر سياسة بوش العقيمة في إدارة الصراع، التي أدت الى صبغ السياسة بالدين، على الرغم من تراجع بوش «قولاً» إنها حرب صليبية، تاركاً الباب مشرعاً لدخول شوائب فكرية دينية تتغلغل في المجتمع، على الرغم من هذا التراجع.

كل ذلك تمخض بانحناء فكري تجاه حالة ضبابية إنجيلية لمقابلة تلك الايديولوجيا، وتمت ترجمتها فعلا على أرض الواقع، فالملفات السرية التي قدّمها رامسفيلد عن الحرب الى بوش، ظهرت معنونة بنصوص إنجيلية من رسالة بولص الى أهل افسس (13-6)، وذكرت العديد من التقارير ان شركة «تريجيكوت» الأمريكية، (إحدى الشركات المنتجة للسلاح)، أخذت تكتب على أسلحتها آيات وأرقاما إنجيلية لبث العزيمة بين صفوف الجيش. إضافة الى ذلك، فإن كثيرا من الجنود الأمريكيين يحملون من ضمن عتادهم الحربي إنجيلاً لكي يحفظهم الرب، حتى أن المعونات التي كانت ترسل إلى العراق وأفغانستان مزخرفة أغلفتها بنصوص إنجيلية...الى غير ذلك من مظاهر التدين.

من المعروف أن الرابطة التي يلتقي عليها المجتمع الأمريكي هي الرابطة المدنية، المبنية على العقد الاجتماعي ما بين الولايات الأمريكية، والمبنية على المواطنة، وفق بند يترأس الدستور بـ«فصل الدين عن الدولة»، لتجتمع عليها كل الهويات، تحت بند دستوري يسمى بالمواطنة.

كل ذلك يضعنا أمام سؤال جوهري، ما هو مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية بتدرجها الديني وفق الهيام الأنغلو- بروتستانتي؟ وما هو مستقبل الرابطة المدنية في ظل استفحال الرابطة الدينية؟

إن المجتمع الأمريكي بتكويناته المزجية يفتقد عنصر القومية في تشكّل رابطته المدنية، حيث إن عقده الاجتماعي مبنيٌ على كثير من اللغات والثقافات، بعكس المجتمعات كافة التي تمتلك مفهوماً قومياً ترتبط من خلاله بمفهوم الأمة الواحدة التي لها هوية جمعية تجمع بين أفرادها روابط خاصة، وفق وحدة تكوينية تضم اللغة والثقافة والمصالح المشتركة والتاريخ والمصير المشترك الواحد، بشرط أن يتم توظيف عنصر القومية كعامل اتصال ما بين الشعب والحكومة، لصهر ذلك العامل ليتحول شيئاً فشيئاً إلى رابطة جمعية تجمع أبناء المجتمع الواحد على ثقافة سياسية واحدة، ليكون الناتج مرجعية بيولوجية تسير على طريق الانتماء الطوعي لبناء الرابطة المدنية.

فالقومية عامل مساند للرابطة المدنية وإن تشكّلت، لأنها تمثّل الجسر الواصل ما بين الماضي والحاضر، فالحال الأمريكية المبنية على الرابطة المدنية تفتقد عنصري القومية والتاريخ، وها هي تتعرض للإجهاض من قبل الرابطة الدينية، لأن الحال الأمريكية لا تحتمل مثل تلك الرابطة، لأنها تؤدي إلى إحياء اللغات والثقافات المتراكمة تحت الرابطة المدنية، حيث إن الحالة المزجية لمدنيتهم لا تحتوي على رابطة جمعية بيولوجية تضم اللغة والثقافة المشتركة، بل تضم العديد من اللغات والثقافات الدفينة، ما يعني أن رابطتهم أبرمت على عامل «المصالح المشتركة» فقط، دون اللغة والثقافة، مثل أي شركة من الشركات، ليظهر، ومن تحت غطاء تلك الرابطة انقسامات، وتشظيات، وانشطارات اجتماعية تقود الى حروب داخلية، ودويلات قطرية إن سيطرت الرابطة الدينية على الرابطة المدنية، فلا سبيل أمام الولايات المتحدة الأمريكية (حكومة وشعباً) إلا التمسك برابطتها المدنية، وإلا فإنها ستتآكل مستقبلاً إن سيطر الفكر الديني عليها.

* مختص بالشؤون الاقليمية

بيت لحم ÷ فلسطين